

كيرلا

جنة ذات ثمار مُحَرَّمة

تحقيق وتصوير: دومنيك ميرل
كيرلا-الهند

هل هذا أمر غير معقول؟ فقبل لحظات كنا جاحظي العيون من الخوف ونحن على طريق سريع متاح لتنافس الكل. وعلى مشارف حادث اصطدام مباشر مع شاحنات، وباصات، ودراجات تدار بالماطور، ومارة وأبقار، والآن. وعلى مسافة أقل من 100م أبعد من تلك الأولى. نحن في مركب على شكل بيت طاف في محيط يبدو وكأنه جنة عدن كبيرة جدا، وهي مشتملة على ثمرتها المحرمة. وفي حال أن الضوضاء على الطريق السريع كان بمثابة جرح لمشاعرنا، فنحن الآن بشكل غامض في محيط محصن ضد الضوضاء، ما عدا تغريد بعض الطيور الاستوائية. هذه هي ولاية كيرلا في الزاوية الجنوبية للهند، حيث تختلط مياه بحر العرب، والمحيط الهندي، وخليج البنغال. وهذه هي المحطة الأخيرة في هذه البلاد المدهشة والوجهة السياحية الجديدة.



Yes, they have bananas in Kerala, more than 30 varieties.

نعم، في كيرلا يوجد أكثر من 30 نوعا من الموز.

من حيث كثافة السكان. ويبلغ تعداد نفوسها نحو 30 مليون نسمة، وهذه نفس كثافة السكان تقريبا في كندا.

وخلال فترة انتعاشنا المذكورة، وإذا بنا ندخل في

بامتداد البصر. ولكن هذا ليس إلا وهما، فتحت أشجار الجوز مدن وقرى متصلة.

وكيرلا هي واحدة من أصغر الولايات الهندية، حوالي عشر مساحة كاليفورنيا، ولكنها أكثر ولايات الهند

وهنا، على شاطئ المالبار، حيث رست بواخر سليمان (ع). كما قيل، قبل ألف سنة من ولادة السيد المسيح (ع). وعندما وصلنا إلى مطار عاصمة الولاية، مدينة تريفاندرم، تبدو الغابة الاستوائية الكثيفة ممتدة

والفاكهة المحرمة في هذه الغابة الاستوائية الكثيفة تبدو تطعيما ما بين التفاحة والكمثرى، وهي متدلية بشكل مغري من أغصان قريبة من الماء. والأهالي يسمون هذه الفاكهة "الفاكهة الانتحارية"، ويمكن لها أن تكون قاتلة إذا لم يسعف طبيًا من يقربها. ويعرّف الأطفال بهذا الخطر حالما يبدوون الزحف.



The two-decker Surya, docked for supplies.

سوريا ذات الطابقين وقد توقفت لشراء الإحتياجات.

عدم السماح بانقراض هذا التقليد وجعله خيرا بعد عين. وأحد هؤلاء هو بابو فرغيس، مدير وكالة السفر المسماة تور إنديا. وكان لديه حلم بتحويل مراكب نقل الرز إلى مراكب للسياح، وتملك الوكالة الآن دزينة من المراكب الفخمة، وسارعت وكالات أخرى بالتوجه نحو سياحة الماء، وهي الآن تجارة رابحة. ومركبنا، السوريا (إله الشمس)، مؤلف من طابقين، فيه غرفتا نوم، حمامان، غرفة جلوس ومطبخ في الطابق الأسفل، وطابق للشمس والغداء في الطابق العلوي. وهناك شرفتان بسعة قدمين في أربع، وبالإمكان جرحهما إلى سطح المركب لتوسعة المكان فيصبح بالإمكان وضع كرسيين على كل واحدة منهما، والجلوس على الشرفة هو بمثابة الركوب على البساط الطائر وهو يخط بأذياله على الماء. وقد رحب مرشدنا، روي، بزوجتي سوزان وبني، وقدمنا

بشكل مغري من أغصان قريبة من الماء. والأهالي يسمون هذه الفاكهة "الفاكهة الانتحارية"، ويمكن لها أن تكون قاتلة إذا لم يسعف طبيًا من يقربها. ويعرّف الأطفال بهذا الخطر حالما يبدوون الزحف. والمركب الذي كنا فيه بني قبل 50 عاماً، ولم يكن مخصصاً للسياح، وهو واحد من 5.000 مركب لنقل الرز أو (كيتوفالام). عندما كانت المياه الخلفية هي سبيل النقل الوحيد في كيرلا. وطول مركبنا 75 قدماً، وهو مصنوع من خشب صلب. والمركب يتحمل 42 طناً، وكان يدفع من قبل أفراد من الأهالي ذوي الأجسام النحيلة والقوة المدهشة. ولكن توسيع الطرق هدد هذه الكيتوفالام بالموت، وفي بداية التسعينات من القرن الماضي لم يبق سوى 100 من هذا الأسطول الكبير المؤلف من 5.000 مركب. وصمم عدد من رجال الأعمال في هذه المنطقة على

طريق سريع ثان، يبدو وكأن جميع الملايين الثلاثين قد خرجوا للتنافس على حيازة جزء منه، ودائماً يكون ذلك هو وسط الشارع، والباصات المكتظة تميل براكبيها وكأنها مراكب تشارف على الغرق، وحتى الأبقار، العنز والخبول غير المركوبة قد دخلت في هذا الزحام المجنون ما جعل المنظر مخيفاً. ولكننا الآن عدنا للانسحاب على المياه الخلفية، راكبين في قاربنا، وحيث الوقت يبدو وكأنه توقف تماماً. والمياه الخلفية عبارة عن شبكة ممتدة من الجداول والمستنقعات والبحيرات الكبيرة والأنهار ذات المياه المالحة والمياه الحلوة، وهي تكوّن برا مائياً يربط مينائي أولون وكوشين. والقوارب هي واسطة النقل الوحيدة لسكان المياه الخلفية. ومنظر الوجه الغربي أمر نادر بالنسبة للأهالي. والفاكهة المحرمة في هذه الغابة الاستوائية الكثيفة تبدو تطعيما ما بين التفاحة والكمثرى، وهي متدلية



Author Dominick Merle (left) with chef Mohan (center) and guide Roy aboard the Surya.

صاحب المقالة، دومينيك ميرل (يسار) مع الطباخ موحان (وسط) والمرشد روي على ظهر سوريا.

ربما أننا لم نزل واقعين تحت سحر المياه الخلفية. واسم "كيرلا" معناه "بلاد جوز الهند"، وهو الصناعة الكبرى. وكل جزء من شجرة جوز الهند يستعمل لغرض أو لآخر، والدهون نفسها تستعمل للطبخ والصابون ومواد التجميل والمساحيق المخصصة للوجه. وليس هناك قطرة واحدة تذهب ضياعاً. وكيرلا تتميز بأعلى نسبة للذين يعرفون القراءة والكتابة في عموم الهند. كما أنها الموطن الأصلي للطبقة المتوسطة في الهند. وخلافاً للقسمة الأعظم من هذه الأمة، فإنه لا توجد ثروة طاغية، كما أنه لا يوجد إلا القليل من الفقر المدقع. ولما كان هناك القليل من الصناعة، فإن التلوث البيئي قليل، والأديان الثلاثة، الهندوسية، الإسلام والمسيحية، تتعايش بسلام في أغلب الأوقات. وإذا كان هذا قد بدأ يشابه ما تقوله كاميلوت، فهذا ليس صحيحاً. ما تزال هذه هي الهند، وعدد من المحاذير مبين في خانة المعلومات. ولكن حتى الأحزاب السياسية تبدو مسالمة. وكيرلا هي واحدة من الأماكن القليلة التي تنتخب حكومة شيوعية، ولكنها أكثر شبهاً بـ"الصوة الشيوعي" (الديالكتيك) الذي يلتحم فيه الهدف مع ضده. ولا بد أن السبب في ذلك هو شيء ما في جوز الهند. ■

ظهر إبهامكم لدفعها إلى الداخل". وبعد فترة من الممارسة، أصبحت إبهاماتنا تعمل كممثل الماكنة. وكانت لغرفتنا فتحات نوافذ تفتح إلى الخارج. ومنا على مقربة إجات من الماء. ولم تكن هناك حاجة لساعة ذات منته، ففي الساعة الخامسة صباحاً بالضبط في كل يوم، يؤذن الراهب الهندوسي في القرية للصلاة بواسطة مكبرات للصوت مربوطة على أشجار الجوز. لقد أبحرنا خلال بحيرة أستمود مراقبين صيادي السمك وهم يلتقطون الأسماك الصدفية والروبيان العادي والروبيان الكبير الحجم بأيديهم. ورأينا في أستمود أجمل صورة لعنصر أجنبي، شبك صيد صينية وهي تبدو وكأنها طيور مرعبة كبيرة، تدخل الماء وتأتي بالروبيان في الليل. بمساعدة الأضوية القوية التي تشبه عيون التنين، وهذه الشباك من نفس النمط الذي كان يصنع منذ قرون بعيدة عندما جاء الصينيون إلى كيرلا. وفي ختام سفرتنا في المركب، عدنا إلى مغامرتنا على الطريق السريع، في طريق عودتنا إلى تريفاندرم. ولكننا الآن أصبحنا متمرسين قدامى، حيث أصبح اقتربنا إجات من حافة الاصطدام ليس سوى سباق نهمة، وكانت لدينا ثقة كبيرة بسائقنا الهادئ الأعصاب. أو

إلى غاغافان، قبطان المركب، راجو، المهندس، وموحن. الطباخ، وبعد التجديف بعيداً عن الشاطئ، بدأ تشغيل المحرك الخارجي-وهناك الكثير ما يمكن رؤيته خصوصاً أن دفع المركب عملية بطيئة-وهكذا شرعنا في سفرة سياحية لمدة ثلاثة أيام في المياه الخلفية. وأجمل جزء من سفرتنا كان القنوات الضيقة حيث الفلاحين منهمكين في أعمالهم اليومية المختلفة. فهناك صبي يافع وهو يصيد السمك من على ضفة النهر، وقتيات المدارس وهن يتضاحكن في مركب في طريقهن إلى بيوتهن، وبضائع تفرغ لدى دكان كبير. ونساء يغسلن القدر والأواني في الماء. لقد توقعنا مرتين يومياً في قرية صغيرة حيث قام الطباخ موحان بشراء السمك والخضراوات، وحيث توفرت لنا الفرصة لأن نمرن أرجلنا على المشي. وبعد العودة إلى المركب، انسحب موحان إلى مطبخه الصغير. وسرعاً ما انتشرت رائحة المرق المتميزة بنكهة جوز الهند في عموم المركب، وفي الإفطار والعشاء، استعملنا الصحن والملاعق، ولكن في فترة الغداء تناولنا الطعام الموضوع على ورقة شجر الموز بأيدينا. وأعطانا مرشدنا، روي، نصيحة مهمة "استعملوا الأصابع الثلاثة والإبهام لإيصال الطعام إلى فمكم". قالها وهو يرينا كيف يكون ذلك، "واستعملوا بعد ذلك